مكتبة المقتطف

ضحى الاسلام

تأليف « احمد امين » الاستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية — اخرجته لجنة الترجمة والتأليف والنشر بمصر

من اجلّ الكتب العربية التي أخرجت للناس في هذا العام كتاب « ضحى الاسلام » ، وصل به صاحبه الاستاذ « أحمد امين » ما كان بدأ في كتابه « فجر الاسلام » ، وبه نقع المؤلف غُلّة شوقٍ بها أدناه هذا العصر زمناً طويلاً . ويخيّل اليّ أن الاستاذ « أحمد أمين » رجل قد أُوتي من الصبر والجَلَد والمثابرة وقوة العزم ونشاط الفكرة نصيباً وافياً سابقَ به المجتهدينَ من اهل عصره حتى سبقهم وأربى عليهم . وعامة الناس لا يعرفون ماذا يلقى الباحث في التاريخ العربي والادب العربيّ من عناءٍ وعَنَتٍ يبلغان منهُ الجُهْد . فالباحث إن لم يؤتَ مثل ما أُوتي هذا الرجل انقلب الى نفسه بأخسّ النصيبين وأوكس الحاجتين . ذلك بأن التاريخ العربيّ خاصة قد انفرد دون ما دوّن من تواريخ الامم الخالية بالنقص في ناحيتين : اولاهما افتقار آثار جاهلية الجزيرة العربية في اليمن والعراق والحجاز والشام وخُفُوتُ أخبارها وقلّةُ ما دون منها على تشتته في كتب الادب وكتب التاريخ ؛ والاخرى ، اعتماد المؤرخ العربي على الرواية فلم يعنَ بالتعليق عليها وتوضيح ما غمض من اسرارها . ونعتقد انهم كانوا يستطيعون ذلك لو تعمدوه ، وقد تبيّن هذا لنا مما رأيناه لهم من القول في ترجيح رواية على رواية اذا التبس الامر . وثالثة لا ذنب للتاريخ ولا للمؤرخ فيها ، تلك هي ضياع اكثر الكتب العربية التي أُلفت في عصر الرشيد والمأمون او عصر تدوين العلم . وابتلينا نحن من بعد ذلك ببليتين : اولاهما أنْ لم ينتدبْ احد من اهل هذه اللغة الى التنقيب عن آثار هذه الامة العربية التي طويت في ارضها بين يمنها وشامها وحجازها وعراقها ومصرها ومغربها وما سوى ذلك ، والاخرى ، أن لم يخفّ أحدٌ إلى دراسة كتب العرب ولمّ شتاتها واستخراج ما خفي من اساليب العرب واحوالها وعاداتها في الاجتماع والادب واللغة حتى جاء في هذا العصر أصحاب الالسنة الاعجمية من دول اوربا بأقوالهم في تاريخنا وأدبنا ودينا بالكلام الجيد تارة ، والفهم الملتوي والتعليل الفاسد تارة اخرى

فأنت حين ترى « احمد امين » يبتدر صادقاً الى هذا التاريخ فيتقلّب فيما بقي من دراسات

طلوله فيما وصلنا من كتبه ما شاء الله ان يتقلب ثم يخرج فيقص عليك من اخباره وقد تقبض عنها غبار القرون وأحداثها ، وما إخالك ترى من اهل هذه اللغة الا نائماً او متيقظاً كنائم او صاحب مكيدة مخدوعاً عن رأيه وقلبه ، والا اعجمي اللسان والقلب يلتوي فهمه ولا يستقيم غرضهُ يتعرّض لتاريخ هذه الامة فيصيب ويخطىء ، ويظهر فضلاً ويدس مكيدة... أنت حين ترى هذا وترى ما في دراسة التاريخ العربي والادب من عناء وعنت لا يتأتى لك بعدهُ إلا ان تحمدهُ وتشكر له ما أسدى الى امته من جميل . هذا وقد وضع المؤلف كتابهُ في أربعة ابواب في كل باب فصول ، وفي الجزء الذي بين ايدينا الباب الاول منهُ : في الحياة الاجتماعية في العصر العباسي من (سنة ١٣٢ — ٢٣٢ هـ) واجتزأ منها بما له اثر قويٌّ في العلم والفن . والباب الثاني : في الثقافات المختلفة دينية وغير دينية . وأرصد باب « الحركات العلمية » وباب « المذاهب الدينية » ليجعلهما من نصيب الجزء الثاني الذي وعد بتقديمه الى القراء قبل ان يفرغوا من قراءة هذا الجزء . فوفاء بحق هذا الكتاب الجيد نبذل جهدنا في الكلام عنهُ والتعرُّض لما فيهِ موجزين ان شاء الله وبالله التوفيق

تحرير القول في الاحوال الاجتماعية والعلم والفن واثر احدها في الآخر من أعسر ما يتعرض له الكتّاب فان الجليل من أحدها له من التأثير مثل الذي للحقير ، وان من صغير احوال المجتمع لما يزيد في العلم والفن او ينقص منهما ، وان من حقير العلم والفن لما يزيد في احوال المجتمع او ينقص منها اذ تتراقد هذه الثلاثة . حتى اذا ما اردت ان تعرف ايها الذي أثّر تأثيراً قويًّا أو ضعيفاً وايها الذي تأثّر التوى عليك المسلك ووقعت في الحيرة واضطربت اضطراب من ضلّ بهِ دليلهُ . فمن اجل ذلك ما ينكُص كثير من المؤلفين عن تناول هذا الا في الندرة . وغاية ما يمكن المؤلف فيعمل ليتلافى هذا النقص وخاصة في التاريخ العربي أن يستقصّط اخبار الحياة الاجتماعية من قصيدة لشاعر او كلة لخطيب او وصف او قصة فيؤلف بينها ثم يمنحها من خياله وفكره ما يتمم بهِ النقص الذي وقع فيها ويضع عليها من زينتها ما يظنُّ انها كانت تتجمل بهِ ثم يعرضها لك بعد عرضاً خلاباً رائعاً حتى لتحسّ وانت تقرأ ما كتب انك قد انتقلت من عصرك الذي انت فيهِ الى عصر مثل هذا العصر العباسي الذي تناوله « ضحى الاسلام » ، وانك تعيش في جوّ من الحياة العباسية فيها سحرها وجمالها ولها روعتها وجلالها ويترقى اليك المؤلف خلال ذلك بما يحقق من علاقة هذا الاجتماع بالعلم والفن وأين أثر كلٍّ في صاحبه غير تاركك فتنسى انك تعيش في ديار الدولة العباسية . فاذا أراد أن يحقق القول في موضوع بعينه كالرقيق مثلاً افرد له خاتمة ما يخرج فيهِ رأيه بأدلته وبراهينه وحججه وما ينتهي اليهِ من اخباره زيّفها وصحيحها

ونحن نعتقد ان المؤلف قد قصّر في هذا الباب على جلالة ما كتب فيهِ . وان القيد الذي

وضعهُ من الاجتراء بما لهُ ثروة قوميٌّ . . . في العلم والفن من الحياة الاجتماعية قد أضاع بهجة هذا الباب . وقد كان يستطيع ان يحتفظ بشرطهِ هذا مع شيءٍ من التوسع في صفة بعض بلاد الدولة العباسية وأهمها بغداد حتى يحس القارئ وكأنهُ ارتحل فوافى بغداد يرى من اطرافها الاسوار والقباب العالية على ابوابها بينها الابراج عليها حراسها وحجابها في ازيائهم وملابسهم . والتماثيل على رؤوسها تلوح وتلمع ، حتى اذا دخل بغداد رأى القصور بين البساتين والانهار فاذا دخلها رأى الدهاليز والممرات والمخترقات والصحون فيها الصور القائمة على اعمدة الرخام ، والمجالس فيها الفرش الجميلة والابسطة المطرزة بالالوان الغريبة ، والشعرُ المنقوش على اطرافها واوساطها . ورأى صور النيلة والخيل والجمال والسباع والطير على ستور الديباج المذهبة . ورأى الخليفة في ابهته وجلاله ومن يحيط بهِ من حاشيته من اجناس الامم في اللباس العجيب . ورأى العلماء والشعراء والحجاب تروح وتغدو ، ورأى زيَّ القضاء وزي الشرطة وزيَّ الكتاب وزيَّ الوزراء وزي الاعراب من الشعراء وهم ينشدون مديحه في صوت البدويّ الجافي مع حلاوة المخرج وحسن الاداء . ورأى شعراء الحضر يمدحون بالشعر فيه الغزل وفيه الحكمة وفيه السياسة والتحريض والدعوة الى التوفيق او التنبيه الى السياسة . ورأى الجدلَ في مجلس الخلافة بين العلماء من فقهاء ونحويين ولغويين ورأى اولياء العهد في ملاعبهم ومجالس علمهم . والندماء في لباس الشراب والمغنين في الاقبية الخراسانية بأيديهم المزاهر والاعواد ومن كل آلات الطرب بينهم القيان الجميلات والاماء الاديبات والشراب يدور بهِ الولدان والقيات يزينهنَّ وحسنهنَّ فاذا خرج الى البساتين رأى الافراس المطهمة عليها الذهب والفضة في ايدي الشاكرين (السوَّاس) عليهم البزَّة الجميلة ثم رأى حيرَ الوحش (حديقة الحيوانات) تخرج الوحوش منها تقرب الناس وتأكل من ايديهم ، والفيلة المزينة بالديباج والوشي مع اصحابها من فيالة السند ، والسباع بأيدي السباعين في رؤوسها واعناقها السلاسل والاغلال ، ورأى البرك من الماء فيها مجالس للخليفة بألوانها وصورها وجمالها واخرى من الرَّصاص القلعيّ تتوهج في شعاع الشمس كالفضة المجلوة والنخيل من حولها ملبَّسًا بالشبه المذهب وأشجار الآرجّ عليها الرينة تنفح عطرها وشذاها . والاشجار المصنوعة من الذهب عليها عصافير الفضة تحركها الريح فيخيل اليك من حسنها انها اشجار حية . وتخرج الى اسواق بغداد يفوح طيبها ومسكها ومندلها وبخورها وصندلها ويتلألأ الذهب والفضة في نواحيها وأرجائها والنساء والقيان والمغنيات والشباب والشيوخ والفقر والغنى وأهل التصوف ومن كل امة وجنس من رومها وعربها وفرسها وسودانها وحبشها وظرف اهل بغداد واحاديث مجانها وخلعائها وتنادر ظرفائها والاعرابيُّ في صوفهِ والحضري في خزهِ وحريرهِ والنعال السبتية بأصواتها وألوانها ويسمع من وراء الجدران لحان الجواري ومن يتغنينَ في بيوتهنَّ ويضربن بالدف والعود والمزهر والناي ، وليل بغداد والسمر والغناء والموسيقى

والمساجد والأذان وأصوات التكبير ودوي قرّاء القرآن في جوانبها ومواعظ الوعاظ وبكاء الناس من هول يوم القيامة وأهل الحديث والمعتزلة والفقهاء والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ..... الى غير ذلك مما يطول ذكره ولا يفرغ منهُ . والذي ذكرنا هو من احوال الاجتماع في بلاد الدولة العباسية وقد اثّرت في العلم والفن وأثّرفيها العلم والفن فلو ان المؤلف عرضهُ عرضاً خلاباً فاتناً لما ترك من بعده مقالاً لقائل

ومثل هذا العرض لا بدّ فيه من تضافر امرين . الاول : كثرة المادة التي يريد ان يبني عليها المؤلف كتابه ، وتهيئتها قبل البدء ، ومعرفة المواضع التي يجب ان يكون فيها التحقيق العلمي وما هو بسبيله من اثبات اثر الاجتماع في العلم والفن او أثرهما فيه بحيث لا يفسد جفاف التحقيق جمال الوضع وحسن الوصف . والثاني : قلمٌ سيالٌ عنيفٌ متزن يمده خيال واسع محيط وفكر متوقد لا يخبو كالشعلة من النار كلما احتطب لها ازدادت توهجاً واشتعالاً حتى ترسل الكلمات في تيار جارف من القوة والرهبة ليحطم بذلك ما بين القارىء وبين العصر الذي يدرسه من اسوار وحوائل . وقد تهيأ الامر الاول للاستاذ « احمد امين » كما دلنا على ذلك كتابه ، اما الآخر فكأني به شيخ محنك قد حطمتهُ السن يضع الكلمة بعدها الكلمة في هدوء ووقار . لانهُ لا يخرجها الا بعد ان يزنها في الميزان المهيأ من تجاربه وما لقي من احداث دهره فمن اجل ذلك ما تجده كثير الاستعانة بما ليس للقارىء به حاجة كقوله في المواضع الكثيرة «في عصرنا الذي نؤرخه» فكأنهُ يخشى ان يكون قارئه قد نسي انهُ يقول ما يقول عن العصر العباسي

وبعدُ فهذا اهم ما نقوله عن الكتاب من جهة وضعه وعرضه وبقيت اشياء قد عرضت لنا حين القراءة على ضيق الوقت والتباسنا بالعجلة وهذا حين نحقق ما عرض لنا من ذلك

١ — نقل المؤلف من رسائل الجاحظ في ص ١١ قوله « من ذلك : أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات ، والاغوار . واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات » ووضع نقطة الفصل بعد «الأغوار» مما يدل على أنها معطوفة على « الهنديات وبنات الهنديات » وعلق على الاغوار بقوله «الغُورة بالضم : بلدة عند باب هراة ، وبلاهاء ، ناحية بالعجم «والصواب» والأغوار واليمن أشهى النساء عندهم... الخ» يعني أهل تهامة والحجاز واليمن « قال الازهري : الغور : تهامة وما يلي اليمن . وقال الباهلي : كل ما انحدر من نجد فهو غور » وأهل الأغوار واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات لكثرة ورودهن عليهم لقرب الحبشة منهم . وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحد أصحابه في تفضيلهن على غيرهن أن « هن أنقى أرحاماً » أو كما قيل

٢ — ذكر المؤلف في معرض الكلام عن خطأ الأعراب وكذبهم في اللغة ص ٣٠٠ «أكاذيب الأعراب» وعنى بها مايختلقونهُ في اللغة وذكر أن أبا العباس المبرّد عقد باباً في كتابه الكامل سمّاهُ «أكاذيب الأعراب» والصوابُ أن الباب الذي عقدهُ أبو العباس في الكامل هو «تكاذيبُ الأعراب» ج ١ ص٣٥٦ وعنى به مايتزيّدُون فيه من الكلام ومايختلقونهُ من الاوهام كالذي قال ابو عبيدة في قول الراجز

«أهدّموا بيتك لا أبا لكا وأنا أمشي الدّأل حوالكا»

هذا يقوله الضب للحيسل (وهو ولد الضبّ حين يخرج من بيضته) أيام كانت الأشياء تتكلم.. الخ وكالذي نقله صاحب «ضحى الاسلام» في ص ٣٠٧ عن كتاب الكامل نفسه من قوله «تكاذبَ أعرابيّان .... الخ»

٣ — قال المؤلف في ص ٣٠١ «وألف ابن خالويه كتاباً سمّاهُ «ليس في كلام العرب» بيّن فيه ألفاظاً تستعمل ولم يصحّ سماعُها من العرب» وليس الأمر كذلك فالكتابُ بين أيدينا وقد طبع سنة ١٣٢٧ هـ بمطبعة السعادة . ذكر فيه ابن خالويه ما شذّ عن القاعدة من كلام العرب وابتدأ كل فقرةٍ بقوله «ليس في كلام العرب» وبها سمّى الكتاب . وذلك كقوله مثلاً في ص ٥ «ليس في كلام العرب ، أفعَل فهو فاعل إلاّ اعشبت الأرض فهي عاشب ، وأوروس الرمثُ فهو وارس ، وأيفع الغلام فهو يافع ، وأبقلت الارض فهي باقل ، وأغضى الرجل فهو غاضٍ ، وأصل البلدُ فهو ماحل» . ولدار الكتب في فهرستها خطأ أكبر من هذا فقد وصفوا هذا الكتاب بقولهم «هو كتابٌ في الكلمات التي دخلت على العربية من الفارسية وغيرها وليست منها» .... !! وليس في الكتاب كلمة فارسية ولا (ملطية)

٤ — في ص ٣٩٥ تحريف في آيةٍ من كتاب الله وقعت هكذا : ألم تر إلى الابل كيف خلقت . والآية من سورة الغاشية «أفَلا يَنْظُرُونَ إلَى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ»

٥ — قال المؤلف في ص ٨٣ «وقد كانت المملكة البيزنطية تحرّمُ على من ليس نصرانيًّا أن يتملك رقيقاً نصرانيًّا ، ولكن المسلمين أباحوا ... !! لليهود والنصارى أن يتملكوا الارقاء ولو كانوا مسلمين» . ولاندري كيف كان ذلك وكيف يكون ؟ وأي دليل وقع للمؤلف على هذا القول ؟ والله تعالى يقول في سورة المائدة «يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصَارَى أوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أوْلِيَاءُ بَعْضٍ ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فإنَّهُ مِنْهُمْ إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ» وكيف يبيح المسلمون ذلك ، ومن الذي أباحهُ ؟ ؟

٦ — من أهم مآثر المؤلف عمله أكبر الأثر في العلم والفن والاجتماع أيضاً كثرةُ الورق في بغداد حين أتوا به من الصين وغيرها وكانت له تجارة واسعة جدًّا في العصر العباسي»

فقد انتشر الوراقون في بغداد وكثرت عندهم الكتب وكثر النُسّاخ والكتّاب وسهل على الناس ان يقرأوا الكتب بالكراء من دكاكين الوراقين . ولقد احدث ذلك من النهضة في العلوم والفنون اكثر مما احدث الرقيق وغيرهم في بلاد الدولة العباسية . ولعلّ المؤلف أخره الى حين القول في الحركات العلمية « فهو به اشبه » او كما يقول . هذا ، والكتاب لا يزال بموضع العناية فان اتسع الوقت لنا في تحقيق ما رأينا فيه عدنا اليه والله المستعان ؟

محمود محمد شاكر

المراحل

سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها

بقلم ميخائيل نعيمه — ١٤٤ صحيفة من قطع المقتطف — طبع عطية صادر بيروت — ويطلب من المؤلف رأساً في بكفتا (لبنان) ومن المكاتب الفرنكية ، وسعره ٧٥ غرشاً سورياً

تخرج المطابع العربية عشرات الكتب يومياً ، ومن هذه العشرات ما قد يكون لكاتب واحد ، ثم تكرّ الايام فيتناسى القراء تلك الكتب ويتجاهلون مؤلفيها فينسج النسيان عليهم حجاباً كثيفاً

غير اني لا اعجب الاّ من مؤلف يخرج كتاباً واحداً فلا يذكر اسم الكتاب حتى يكون اسم المؤلف مقدمته ، او يذكر اسم المؤلف فلا يكون عنوان الكتاب الاّ لقبه

ذلك هو ميخائيل نعيمه مؤلف الغربال ، ما اذكره الاّ واذكر الرأي السديد ، والفكر الجليّ ، والمعنى الحيّ ، والاسلوب القوي ، والقلب النابض بالحياة ، والنظرة المتطلعة الى الحقيقة المجردة من وراء الحجب الكثيفة . وهو في كتابه الثاني « المراحل » ابعد مرمى ، وأنفذ بصيرة ، فهو يتغلغل فيه الى لباب الحياة فيستخلص الحكمة منها كما هو في مقالات : « ثلاثة وجوه » و« الى الجندي المجهول » و« حبتان من القمح » و« المزابل » و« موعظة الغراب » وغيرها . وفي مقاله « الفوضى الادبية » ردّ قوي على الجامدين بإزاء نظام الحياة الذين يرون الفوضى في ان يكتب الناس بأساليب غير ما القوا ، وأن يعبروا عن عواطفهم في قوالب غير قوالبهم « ولو فكروا لفقهوا ان ما يدعونه « فوضى » ليس الاّ نتيجة لازمة لعلل كثيرة سبقتها وانه مظهر من مظاهر النظام السرمدي الشامل . وانه ، وان يكن خروجاً على انظمتهم ليس خروجاً على ذلك النظام الذي لا متمرد عليه ولا عاص »

ولميخائيل نعيمة نزعة الى الروحانيات يبدو أثرها قوياً في مخاطبته الوجوه الثلاثة : وجه بوذا ، ووجه لاوتسو ، ووجه يسوع . فأسمع صداها في نفسي وهو يناجي الوجه الاول قائلاً :

« غوتاما بوذا ! ياساكن النرفانا ! الا بيّنت لي انا المسّير بالارض ، والحامل من همومها ثقل محورها وجبالها ألا بينت لي كيف اقف على العتبة الفاصلة بين الوهم والحقيقة كما وقفت

انت على عتبة مخدع زوجك وأم بكرك وقد نامت تحت لحاف من الازهار ، وبكرك وبكرها ملتصق بصدرها ، ومن دون ان تدنو منها قلت : هوذا رباط جديد قوي يجب ان أشك منهُ كذلك . وأدرت وجهك الى الليل ورحت هائماً في الآجام تطلب الطريق الى انرفانا»

وعطفهُ الى «الذات العالمية» في مناجاته هذه هو شوقهُ الى طريق لاوتسو، الى «الطاو» إذ يناجيه : «إيه لاوتسو ! يا نقيض الناس ومعلم الناس ، ألا ازرع في نفسي الطماعة الطماحة، الحاقدة الناقة ، المتهزئة المستكفة ، العاتية المستعبدة ، الصاعدة الهابطة في زبد امواج الرغائب والمنى ، ألا ازرع فيها حبة من بذار قناعتك ، وحبة من بذار محبتك ، وحبة من بذار حريتك، وحبة من بذار وداعتك ، وحبة من بذار تناهلك ، وحبة من بذار سلامك وحبة من بذار طمأنينتك !!»

ويرى الاستاذ نعيمه انهُ اذا كان في العالم فساد «فالفساد ليس الا في اعتقاد الناس أنهم فاسدون وأن في الكون ما هو معوج وفي قدرتهم تقويمه»

واسمعه في اعماق نفسي ينشد «الآب» وهو يناجي وجه يسوع هاتفاً : « ايها القائل : « ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فانهم يحبون ان يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس ... » علمني كيفما تخفت في اذنيَّ اصوات هؤلاء المرائين ، وأسمع صوتك قائلاً : « حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً » فأنهم اني إن شئت العودة الى « الآب » فعليَّ أن أسمع الآب في قلبي أو قلبي في الآب »

وهذه النزعة العلوية التي تنزعها روح أديبنا هي التي تجعلهُ يرى الفرق بين الشرق والغرب « منحصراً في نقطة واحدة جوهرية وهي ان الشرق يستسلم لقوة أكبر منه فلا يحاربها ، والغرب يعتدُّ بقوَّته ويحارب بها كل قوة » « وان الشرق اقرب من الحقيقة بإيمانه من الغرب بفكره وعلمه وبرهانه ...» وفي نظره «أن القائل من كل قلبه : «ولا غالب الا الله» لأحكم وأكثر طمأنينة روحية من القائل : « ولا غالب إلا أنا » ويرى ان الغرب أحوج الى مدرسة الشرق من الشرق الى مدرسة الغرب

لهذه النزعة ولهذه الروح الوثابة الى نشدان الذات العالمية مع بوذه ، والطاو مع لاوتسو والآب مع يسوع يرى ميخائيل نعيمة عاملاً قلبهُ متطلعاً الى النور البهي الذي يرى روحه آفاق إشعاعه ليعود مسرعاً من نيويورك ذلك « التنين المتمدد بين نهرين ، الفاغر فاهُ ليشرب البحر ويبتلع البر دون أن يرتوي يوماً أو يشبع » يعود مسرعاً الى صنين ليستلقي «في الأصيل على صخرة دهرية بيضاء فيها توالى سنة كالحراب تتخللها منبسطات ملساء ككف العذراء ، من (ورائه) صخور تتعالى الى السماء وتطرح (عليه) ستراً من الظل ناعماً كالمحبة مؤنساً كالرجاء عابقاً بالسلام والطمأنينة كالإيمان .»

وكأني اناجيه وهو مُولٍّ وجهه عن نيويورك الى بكنتا (لبنان) يناجي به لاوتسو: « أحب وجهك الكالح — وجهَ المعلم لايفهمهُ تلاميذهُ ، وأحب وجهك الشاحب — وجهَ العاشق لا وصول له الى معشوقهِ ، وأحب وجهك الحائر — وجه من وجد الطريق ثم عاوده شك بقدرتهِ على قطعه . غير اني أحب أكثر من ذلك بمالا يقاس وجهك الذي أدرتهُ عن الجندي على حدود ولاية «تشو» وصوبته نحو الأفق البعيد فكأني بولاية « تشو » عالم الحس والشهوات . وكأني بك حين تخطيت حدودها تخطيت حدود هذا العالم تاركاً خلفك ربوات من الديدان البشرية تدأب النهار والليل في حفر الأرض كأنها تتحصن في حُفَرها من الموت والفناء ، وما حُفَرها إلا قبور لها ، وكأني بالأفق الذي أدرتَ اليهِ وجهك ملكوت الطاو . وكأني بوجهك إذ ذاك شعلة من نور الطاو فلا أثر لحرقة فيه أو لفوعة . أو لحزن او لفرح . أو لأمنية أو لشهوة . أو لخير أو لشر . وكأني بروحك القدوسة تسير حتى الساعة في سبيلها السَّير القويم الذي لاحدَّ لطوله ، ولاقياس لعرضه وفي سيرها محجتها فهنيئاً لك ! »

حسن كامل الصيرفي

من الارز الى الزوفا[1]

بحث في اساطير النبات في فلسطين

بقلم السر كروفوت والمس بلدنسبرجر

هو كتاب بالانكليزية بقلم السيدتين الفاضلتين السر كروفوت والمس بلدنسبرجر فيهِ مباحث جليلة في نباتات فلسطين وما جاء فيها من اساطير العامة من اهل البلاد وما قال فيها القدماء . والكتاب مبوّب احسن تبويب ففيهِ فصل في السنة الزراعية وآخر في الحبوب والعنب والزيتون وآخر في الاطعمة البرية منها البقول اي الخضراوات واحرار البقول اي ما يؤكل منها نيئاً والجذور والقطاني كالحمص والفول والجلبان والبيقية والعدس والباقلا

فمن البقول البرية الخُبّازى واللُّفيت ولسان الثور واللوف والعكّوب . ومن احرار البقول اي ما يؤكل منها نيئاً الخُرفَيش وخرفيش الحمير والحُميرة والقَطَف والحُسّاك والخُبيص والخرشوف البرّي والطرخشقون اي سلعلة الرهبان والهندباء والخس البري والقرصعنة . ومن الجذور النَّشير والبنبوس وتوم العرب

وفيهِ فصل في الوقود منها البَلّان والرِّتم والصوفان . وفصل في النباتات التي اسماؤها غريبة او واردة في امثالهم منها عين البَرّ والخُطّي وسراج الغول والخِلّة وشعر العجاز وهو الكشوث وابرة العجوز وقرنبيط الدجاج والسَّير والخروع والحدق والعُشَر والحنظل

(1) From Cedar to Hesson. A Study in the Folklore of Plants in Palestine by Grace M. Crowfoot and Louise Baldensberger London: The Sheldon Press.

ثم الازهار الطيبة الريح كالخندقوق والورد والحنّاء والنباتات الداخلة في عمل الاصباغ كالنيلة والفوّة وفي عمل الصابون كعرق الحلاوة والفلي

وفصل في النباتات الطبية ورد منها الزوفا اي الزعتر والمريمية اي القصين والزعتر الفارسي والجعدة والشيبة والحُمحم والزقّوم والقرطُم والكزبرة والكمّون والشمر والشاهترج وعرق السوس والطيون وهو الطبّاق والبابونج والخرْمَل والمعطكى والعنبر والقصّاب والرجلة وهي البقلة الحمقاء والخامشة والشذاب اي القيجن والسُمّاق والمشنان والقراص والرشاد وغيرها . وفصل في الاشجار المقدسة منها الارز والبلّوط والميس والرمان والسِدْر والطرفاء والخرُّوب والنباتات السحرية منها اللفّاح او بيض الجنّ وكف العذراء وزهرة البراءة

ويتخلل كل ذلك اشعار عامية وحكايات وامثال . مع وصف النباتات وصفاً دقيقاً . والكتاب مزين بصور النباتات بقلم الحبر كروفوت والصور كلها حسنة جدًّا . ولما كان هذا الكتاب النفيس يتعذر وصفه ونقده باسطر قليلة رأينا ان نفرد له فصلاً خاصًّا في الجزء القادم من المقتطف بقلم العلامة الفريق امين باشا المعلوف

محمد — حياته ومعتقده

Tor Andrae, Mohammed. Sein Leben und sein Glaube. Göttingen, Vandenhoeck u. Ruprecht, 1932, 160 S. 8o.

اكثر المشتغلين بدرس السيرة النبوية في الغرب كانوا — ولا يزالون — من اللاهوتيين وهو أمر يقتضيه التخصص واقسام التعليم ودرجاته عندهم . اذ أنّ الموضوع بطبيعته اقرب الى قسم اللاهوت منه الى سائر الاقسام . وقد تطور هذا الموضوع بتطوّر علم اللاهوت . صار اليوم علم النفس وعلم مقابلة الاديان من المواد الضرورية في قسم اللاهوت بالجامعات الكبرى وظهر اثر ذلك في درس السيرة النبوية . والكتاب الذي نحن بصدده خير مثال لذلك . صاحبه استاذ بجامعة أبسالا بالسويد ومستشرق معروف يعد من الاختصاصيين في «حياة محمد» ظهر له سنة ١٩١٧ كتاب بعنوان « محمد كما رآى أمّتُه ولعتقد » وآخر سنة ١٩٢٥ بعنوان «مَنشأ الاسلام والمسيحية» وكلاهما باللغة الالمانية وله غير ذلك رسائل ومقالات تتصل بالموضوع نشرت في مجلات علمية مختلفة

وهذا كتابه الاخير ظهر منذ بضعة اشهر وهو يحتوي على مقدمة وسبعة فصول هي :—

(١) بلاد العرب عند ظهور الاسلام (٢) من الطفولة الى نزول الوحي (٣) رسالة محمد الدينية (٤) في الوحي (٥) الخصومة مع القرشيين (٦) حاكم المدينة (٧) شخصية محمد

وللكتاب ميزات كثيرة منها :—

(١) شدة الاحتياط في قبول النتائج المبنية على الابحاث اللغوية . (ص ٢٠ و ٣٤) وهي

حيزة يتقدّرها كل من له الملم باساليب قدماء المستشرقين (٢) اعتبار القرآن المصدر الرئيسي للسيرة النبوية ويظهر ذلك في كل فصول الكتاب (٣) ان الكاتب يعتبر الاسلام « قوة روحية وبذرة حية لا مجموعة تعاليم ونظام من الشعائر الدينية فحسب » (ص ٨) وان تلك القوة الروحية هي ايمان محمد الشخصي (ص ٨) فهو لا يخوض في مسألة « الابتكار » وحظ الاسلام منه الخ والفضل في ذلك العلم مقابلة الاديان

في الفصل الثالث تظهر مقدرة الاستاذ كلاهوتي عصري ومستشرق ممتاز خصوصاً عند بحثه في مسألة القضاء والقدر واثباته انها — كعقيدة دينية — ليست بضعف وعبودية بل قوة وحرية . والفصل الرابع والسابع يعدان آية في دقة البحث وتحري الانصاف والبراعة في تطبيق نظريات علم النفس الحديث

ط . خيري

بجامعة هيدلبرج — المانيا

رسالة تاريخية

عن مستشفى الاسكندرية الاميري — وضعها الدكتور عبد الرحمن عمر مديره سابقاً
طبعت بمطبعة التمدن بمصر

« ثارت نفسي بعد ان اسندت اليّ ادارة مستشفى الاسكندرية الاميري الى ان اعرف شيئاً من تاريخه وحفزني لذلك ما وجدت في انحائه من مظاهر أثرية قديمة كاعمدة كاملة وغير كاملة من الجرانيت أو الرخام ومن مباني في جوف الارض ، ثم ما وجدت فيه من مظاهر حربية تدل على ان المنطقة التي هو فيها كانت على ما يظهر جزءاً من منطقة دفاعية ، يدل على ذلك بقايا مدفع وبعض من القذائف الحديدية القمعية الشكل في بعض جهات المستشفى ثم بناؤه فوق هضبة عالية بها ما يشبه الطوابي »

بهذه العبارات المشوقة صدّر الدكتور عبد الرحمن عمر بك هذه الرسالة التاريخية النفيسة . ولا ريب في ان التصدي لهذا البحث التاريخي عمل شاق لطبيب يمارس صناعته ويتولى ادارة مستشفى وفي كفه ارواح معلقة في الميزان بين الحياة والموت . ولكن المؤلف اجاد البحث التاريخي اجادته للعمل الانساني الذي توفر عليه وانقطع له

ويؤخذ من بحثه ان المستشفى أسس سنة ١٢٤٦ هـ — ١٨٣٠ م وأغلب ظنه ان اللوحة التي دوّن عليها هذا التاريخ منقولة عن لوحة سابقة فقدت . ولجأ الى دار المحفوظات المصرية بالقلعة فعثر على وثيقة تشتمل على الامر الصادر من محمد علي الى بلال افا في مارس سنة ١٨٢٧ م ببناء المستشفى . ثم جشم المؤلف نفسه مؤونة البحث عن حيّ « بين السواقي بالاسكندرية القديمة » المذكور في الوثيقة المشار اليها فلجأ الى قسم المساحة المحلي بالاسكندرية وبحث مع رجاله في الخرائط ، ثم الى المعمرين من الرجال فاخبره احدهم وقد كان مكارياً في سنة ١٨٨٢ وعمره الآن

تسعون سنة ، « ان المستشفى الاميري كان مبنيًّا بجوار جامع المنير في منطقة بين السواقي بالقرب من جامع الناصوري وكان يعرف بمستشفى المحمودية » . ثم حقق ذلك مع مدير مصلحة المساحة فراجعا خريطة التلكي الموضوعة سنة ١٨٦٦ فعثرا فيها على شارع باب الاسبتالية بجوار جامع المنير — الذي ذكرهُ المكاري — ووجدا بناءً مربعاً لم يشكّا في انهُ بناء المستشفى وهو مشغول الآن بمدرسة الفرنسيسكان والدير المتصل بها

على هذا النمط من التحقيق أتى المؤلف الفاضل على ذكر تقدم المستشفى في خلال مائة سنة من الخدمة العامة . وذكر مديريه ونشر التقارير التي وضعوها وما اشتملت عليهِ من البيانات الوافية عن المرضى الذين عولجوا فيهِ وامراضهم وعملياتهم

علم الطبيعة

الجزء الثالث في الضوء — تأليف محمد هاشم الخشاب استاذ علمي الطبيعة والكيمياء في مدرستي التجهيز ودار المعلمين بدمشق

كتاب مدرسيٌّ حافل بتفصيل شؤون الضوء بالتجارب والحسابات الرياضية . فهو لا يصلح للقارىء العام الذي يريد ان يلمَّ بخواص هذه الظاهرة العجيبة — الضوء — وبالآراء في طبيعتها من نيوتن الى بلانك وكمتن وما لها من صلة بفلسفة الكون الطبيعية والمذاهب الحديثة كنظريتي النسبية و « الكم » او « المقدار » Quantum

والظاهر ان المؤلف عني فقط بتفصيل احكام الضوء المشهورة كالانعكاس والانكسار ، وصنع المرايا وتكوّن الاشباح عليها وبناء المجاهر (المكرسكوبات) والنظارات الفلكية (التلسكوبات) ولكن لم يوجه انتباهه الى التطور الحديث في نظر العلم الى الضوء . فليس ثمة كلام في فصول الكتاب يتناول تشتت الضوء او تفرقهُ (scattering) ولا الحل الطيفي (spectrum analysis) واستعمال ما يشهد في الطيف من خيود الخطوط المظلمة لمعرفة عناصر النجوم او اتجاهها وسرعته ، ولا النظرية الحديثة في ان النور ليست دقائق فقط كالدقائق التي قال بها نيوتن ولا امواجاً كالامواج التي ذهب اليها هوجينس وغيره ، بل هو ينطلق في مقادير دقيقة Quanta تسير سيراً موجيًّا . ثم اننا لم نجد فيهِ ذكراً للطريقة التي قيست بها سرعة الضوء وعلاقة ذلك بمسألة ميكلسن مورلي التي بنيت على نتائجها نظرية النسبية . وكلُّ هذه مباحث لا يمكن ان يكون كتاب حديث في الضوء كاملاً من دونها

ثم ان المؤلف استعمل الفاظاً كنا نفضل انهُ يجاري فيها الشائع بين كتاب العلم . فقد استعمل الابتلاع absorption بدلاً من الامتصاص وشبه الظل بدلاً من الظليل والطولاني والعرضاني بدلاً من الطولي والعرضي ونوترون بدلاً من نيوتن وهو نطق اسمهُ كما يتلفظ بهِ اهل بلاده والجسم الزجاجي في العين بدلاً من الرطوبة الزجاجية والمخلط (ولهُ وجهٌ) المائي بدلاً من الرطوبة المائية وفاليله بدلاً من فاليليو

في الصيف

عند ما رأيت الغلاف المتواضع الذي اصطنعه الدكتور طه حسين لكتابه « في الصيف » لم اقدر لهذا الكتاب خطراً اكبر من انه احد المباذل التي قد يتفضل بها المشهورون من الكتاب ولا يتحرجون الظهور بها على الناس اعتماداً على ما لهم من شهرة واسعة وصوت بعيد . وعلى هذا التقدير وان شئت قل على هذا الظن كنتُ الشهوة الحادة التي كانت تحفزني للاطلاع عليه

وكانت احدى زياراتي للاستاذ محرر المقتطف فنظرت فاذا بي اجد هذا الكتاب على مكتبه ولست ادري كيف تناولته ولا كيف فتحته ولا في اي صفحاته نظرت وقتئذ واذكر اني فعلت هذا كله في رغبة وشوق ولذة لا اعرف لها مأتى

لا احب ان اقول اني لمحت في هذا الكتاب قوة سحرية جبارة لان القدر الذي قرأته حينئذ كان يسيراً لا يسوغ لي هذا الحكم . ولكن الى اية جاذبية خارجية اعزو هذه الجرأة التي اخرجتني على عادتي فطلبت بنفسي من الاستاذ محرر المقتطف ان يسمح لي بقراءة هذا الكتاب ثم بالكتابة عنه اذا سمحت الظروف ؟ آه لقد اهتديت

سمعت او قرأت لا اذكر تماماً ان لكل انسان ملكاً يرد غيبته ويظهر ان الملك الموكل بردّ غيبة الدكتور خبيث جداً او انهُ يقظ الاحساس جداً فهو لم يرضه من انسان كائناً من كان ان يحتقر اي شيء لصاحبه ولو كان غلاف كتاب

فلم يكن من الخبيث الا ان احتال حتى وضع الكتاب في يدي والاّ ان زيّن لي قراءة صفحة من وسطه خيل اليّ فيها كل ما يتخيله المسحور واذا بي ارتدّ بكل تواضع الى قراءة هذا الكتاب من اوله واذا بي أكاد اقف عند كل جملة مستحسناً او موبخاً نفسي على التقدير الظالم الذي اسلفته لهذا الكتاب اول يوم وقعت عيني عليه

الحق ان كتاب « في الصيف » لا عيب فيه الا تواضع مظهره فقد كان جديراً بمثله ان يظهر في ورق أغلى مما ظهر به وان يقمش في جلدة ارستقراطية لائقة بمثله ولكن هذا شيء مستدرك ولعلنا نراهُ في طبعته الثانية المرجوة قريباً ان شاء الله . اما اسلوبه واتجاهاته الفنية فناهيك باسلوب فني يقول الاستاذ العقاد في نقده انهُ يشبه او يقارن بالرسائل النثرية . اما ان فقد اري ولكن بكل تواضع انهُ اقرب شبهاً الى اسلوب اناتول فرانس في رواية جريمة «سلفستر بونار» وسواء اصح رأي العقاد او صح الرأي الثاني ام صح الرأيان واكبر الظن انهما الاثنان صحيحان فان اللغة العربية جديرة ان تهنأ بهذا النوع من الادب الحي وان الدكتور طه جدير ان يباهي بأسلوبه الذي يلتقي فيه جمال اسلوبي شاعر الالمان وكاتب فرنسا العظيم . وبعد ذلك فهو باق خالد بطابعه المستقل المعروف بانهُ اسلوب طه حسين

***

تاريخ مصر السياسي الحديث

تأليف محمد رفعت — جزآن — الثمن ١٥ غرشاً — المطبعة الرحمانية

عند ما عهد صاحب الجلالة الملك فؤاد الى المؤرخ الكبير «غبريال هانوتو» بوضع تاريخ مصر سأل المؤرخون المصريون هل المؤرخون الغربيون واقفون الوقوف الوافي على دخائل قضايا الشرق ودقائقها ، واذا كانوا مطلعين أيعدلون في الحكم على شعوبه وينصفون التاريخ ، وبعضهم في احكامهم يأخذ باعتبارات يتشعها تأييداً « لغرض لم يبق على احد خفيًّا »

على انه مهما يكن من شيء فان في مؤرخي الغرب أمناء لايدخرون العلم بالسياسة . وعلى كل فان مؤرخي الغرب ابرع في نبش مكنونات التاريخ وتصنيح مطويات الوثائق لوفرتها في خزائن الحكومات الاوروبية في حين ان خزائن الحكومات الشرقية خالية من معظمها وهو اهمال يعود الى اسباب جمة منها فوضى الادارة في الحكومات الشرقية على عهد الفتوحات . ومنها عدم اصدار كتب رسمية في الحوادث الكبيرة على ما جرت به العادة عند الغربيين . يدلك على وجاهة هذا القول ان المصادر التي استقى منها المؤلف تكاد تكون كلها اجنبية (فرنسية وانجليزية) وقلما اعتمد على مرجع مصري او عربي محض . ومن دواعي اغتباطنا ان بعض كتّاب مصر تنبه الى لزوم العناية بتدوين تاريخ بلاده ولا يضيرهم ان يعمد بعضهم الى الترجمة والنقل فالتاريخ واحد لا يتجزأ الا من حيث تفهم الكاتب له ووجهة نظره فيه

وقد رأى حضرة الاستاذ محمد رفعت ان يدلي دلوه في الدلاء فيعرض عن الملإ تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة فكان موفقاً في الواسطة وفي الغاية توفيقاً يعود الى تنزهه عن الهوى والى تأثره بالحقائق دون العواطف واخيراً الى كونه — على ما يبدو لي — غير متلون بلون سياسي — الوطنية شيء والسياسة شيء آخر — يستهويه عن الحق الى الباطل وعن الامانة الى التغرض . يأخذ العلماء على المؤرخين العرب في قديم الزمان خلو مؤلفاتهم من الطريقة العلمية اما الاستاذ محمد رفعت فقد جمع الى الطريقة العلمية الاسلوب التدريسي — وكتابه وضع للتدريس — فجاء خالياً من المطولات والتفاصيل ولكنه يحتوي اسماء المصادر التي استقى منها الكاتب لترجوع اليها عند الحاجة

يشرح المؤلف في الفصل الاول من كتابه الحالة السياسية والاقتصادية والصناعية في مصر قبل الحملة الفرنسية ثم يصف هذه الحملة واسبابها ونتائجها ثم نهضة محمد علي واصلاحاته الداخلية ثم يعرض للمسألة الشرقية التي ما زال المؤرخون مختلفين فيها لانهم مختلفون في تفسير الشرق وحدوده

ثم ينتقل الى تحليل اقلق الدول عند محمد علي والى التحدث عن الازمة السياسية في سنة ١٨٤٠ اذ نشبت الثورة في الشام واذ اتفق الجميع على ضرب محمد علي ضربة مؤلمة واذ دخلت المسألة المصرية في دورها الحافل بالحوادث العنيفة . وفي هذا الدور وصلت الدول

بعد بحث وتبادل آراء دام سنة الى انهُ يجب الاستعداد لخوض غمار الحرب لاجل استتباب السلم في انحاء الدولة العلية . وفي الجزء الثاني يصف المؤرخ مصر كما وجدها اسماعيل ومصر التي اوجدها اسماعيل ويتناول قناة السويس وامتداد دولة مصر ومنشأ الديون وتحكم اصحابها كما هو جدير بالمطالعة في هذا الوقت الذي تقف الدول فيه موقفاً صارماً وتقاضي مصر امام المحاكم المختلطة وأخيراً يصل المؤلف الى الثورة العرابية ونتائجها ثم ينتهي الى تدخل انكلترا وحرب الاحتلال

وفي الكتاب ملاحق تاريخية ذات شأن كالملحق المختص بمحمد علي والخلافة وقد نشر المؤلف مضمونه في المقتطف (راجع عدد نوفمبر ١٩٢٣) ويذكر المؤلف ان جامعة الامم فكرة اختمرت في عقول ممثلي الدول في سنة ١٨٤٠ ولكنها لم تخرج الى الوجود فالحلافات قامت بينهم فاقتضى لتأليفها قيام حرب طاحنة قلبت وجه العالم رأساً على عقب

والذي يلاحظه القارىء ان المؤلف عمد في الانشاء الى اسلوب السهل الممتنع لانه يكتب موضوعاً علمياً وكتاباً تدريسياً على انه لا ركاكة في لغته وان كانت تخلو من البيان الفني . وانك لتلمس في بعض فصول الكتاب تثاقلاً في التعبير فتدرك ان قلمه العربي لم يستظهر على الصيغة الفرنجية التي ترجمها الكاتب وقد تكون منقولة — ولا حرج في ذلك — عن الوثائق الاصلية وكثيراً ما تصاغ فصول هذه الوثائق بعبارات منقلقلة مبهمة وبانشاء مرتجف متعرج

وخلاصة القول ان المؤلف لم يقتصر على ايراد الحوادث والوقائع بل تخطاها الى ذكر الاسباب والمسببات فاعان ذهن الطالب على تفهم كنه المسائل والنفوذ الى داخلها ومن دونها تبقى دراسة التاريخ فارغة من اللباب والمادة توفيق وهبه

القلائد الجوهرية

ديوان من الشعر الجزل نظمتهُ السيدة انيسة حساب في مناقب جلالة الملك فؤاد ورفعتهُ الى السدة الملكية مخطوطاً ابدع خطٍّ ومجلداً انفس تجليد . وقد صنعت من صفحاته المخطوطة كايشيهات طبعت على ورق صقيل ويحيط بكل صفحة اطار مذهب وصدرت بصورة صاحب الجلالة الملك تليها صورة صاحب السمو الامير فاروق فصورة سموه مع صاحبات السمو شقيقاته فصورة سموه مطلاً من عربة القطار الملكي فصورة صاحب الجلالة مع سمو ولي العهد فصورة ساكن الجنان المغفور له الخديوي اسماعيل فصورة المغفور له ابراهيم باشا فصورة محمد علي باشا مؤسس الاسرة المالكة . وقد طبع الكتاب اتقن طبع بمطبعة شندلر بمصر

المحاسن الخيلية

او سفر الفن والحكمة: وهي مجموعة نفيسة من صور وخواطر فنية حكمية صوفية مخطوطة خطاً بديعاً — ثلث ورقعة وفارسي — بقلم الخطاط المعروف محمد مرتضى . فنثني على همة حضرته ونرجّه اليها الانظار ونحيي لمجموعته الفنية الرواج والانتشار عند محبي الفن والحكمة